النقد التفكيكي (عربيا)

تمهيد:

إذا رجعنا إلى الخطاب النقدي العربي المعاصر فإننا نجد بعض الأقلام المتميزة التي اهتمت بهذه القراءة وحاولت تطبيقها على بعض النصوص العربية ومن أبرز هذه الأقلام: عبد الله الغذامي في مؤلفيه "الخطيئة والتكفير" و "من البنيوية إلى التشريحية"، وعبد المالك مرتاض في تطبيقاته على "حمال بغداد: تحليل سيميائي تفكيكي"، و "ألف ياء: دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة أين ليلاي لمحمد العيد آل خليفة"، و"تحليل الخطاب السردي: معالجة تفكيكية سردية"..

- أولا: التفكيكية عند العرب:

تجمع جل الكتابات على أنّ القراءة التفكيكية قراءة متضادة، تثبت معنى للنص ثم تنقضه لتقيم آخر على أنقاضه في إطار "إساءة القراءة"، إنّها تسعى إلى إثبات أنّ ما هو هامشي قد يصير مركزيا إذا نظرنا إليه من زاوية مغايرة.

لذا رأى عبد العزيز حمودة أنّ التفكيكية "تبحث عن اللَّبِنَة القلقة غير المستقرة، وتحركها حتى ينهار البنيان من أساسه ويعاد تركيبه من جديد. وفي كل عملية هدم وإعادة بناء يتغير مركز النص وتكتسب العناصر المقهورة أهمية جديدة، يحددها –بالطبع– أفق القارئ الجديد. وهكذا يصبح ما هو هامشي مركزيا، وما هو غير جوهري جوهريًا".

هاهنا نستشف أنّ القراءة التفكيكية تهدف إلى إيجاد تصدع وشرخ بين ما يصرح به النّص وما يخفيه أي بين ما يقال ومالم يتم التصريح به. أمّا التحليل التفكيكي عند عبد المالك مرتاض فيقوم على "تقويض لغة النّص أجزاء أجزاء، وأفكارا أفكارا [...] لتبيّن مركزيّ النّص والاهتداء إلى سر اللعبة فيه، ثم يعاد تطنيبه، أو بناؤه، أو تركيب لغته على ضوء نتائج التقويض". هاهنا نلفي أنّ التفكيك عند عبد المالك مرتاض يقوم على تفكيك النّص إلى أجزاء وتحليل أدق تفاصيله ليصل القارئ أو الناقد إلى عمق النّص فيهتدي إلى سر البناء فيه.

وتقوم تشريحية عبد الله الغذامي، في جوانب أساسية من ممارسته النقدية على ما سماه مبدأ "تفسير الشعر بالشعر" الذي اتخذ منه شعارا نقديًا تصدر عنه قراءاته الشعرية المختلفة، يقوم هذا المبدأ على "إدماج كل قصيدة في سياقها، ولكل قصيدة سياق عام هو مجموعة شفرات جنسها الأدبي، وآخر خاص هو مجموعة إنتاج كاتبها، وهذان سياقان يتدخلان ويتقاطعان بشكل دائم ومستمر". وعليه فإنّ التشريح يقوم على تفكيك النصوص إلى وحدات، يُعّملُ الناقد أدواته وذلك بتسمية كل وحدة وتحليل النّص الإبداعي إلى أصغر وحداته الجملة.

والجملة الشعرية عند الغذامي هي غير الجملة النحوية، إنها قول أدبي تام ليس له حدٌّ قارٌّ، فقد نجد قصيدة من خمسة أبيات لدريد بن الصمة تشكل "جملة أدبية واحدة" لدى الغذامي الذي توقف عند بيتها الشهير: وما أنا إلاّ من غزية إن غوت غويت، وإن ترشد غزية أرشد؛ فهذا البيت شاهد على العصبية القبلية، ولكن عندما أعاده عبد الله الغذامي لسياقه (جملته) تراءت دلالته مغايرة لما عهدناه، إذ أبان عن قمة الدلالة الديمقراطية.

لعلنا لا نحيد عن جادة الصواب إن قلنا إنه تأويل يكتب النصوص بإعادة قراءتها قراءة "تُقَوِّضُ" المركزية القرائية الأحادية المهيمنة القائمة على فهم سيء وتفسير النصوص ببترها عن جملها الشعرية" سياقاتها" أو ما يسميه الغذامي "ذاكرة النّص."

ويقر الغذامي بان هذا المبدأ التشريحي الذي يصطنعه هو مبدأ توفيقي يقوم على استثمار جملة من المقولات النقدية، ويقوم هذا المبدأ على جملة من المبادئ الجزئية.

1- مبدأ "الاختلاف " أي اختلاف الحاضر عن الغائب، أي أن استحضار الغائب تفيد في تحويل القارئ إلى منتج للنص، وهذا يثري النص بجلب الدلالات لا تحصى إليه، كما تفيد في إيجاد قراء إيجابيين يشعرون بأهمية القراءة.

2- إعادة قراءة النص، العمل الإبداعي، قراءة تختلف عن القراءات السابقة.

3- يستثمر الغذامي ضمنيا مفهوم "التناص الداخلي"؛ بما هو تقاطع للنص مع النصوص الأخرى.

4- يرى الغذامي أن عملية إحضار عناصر الغياب إلى النص هي في حقيقتها محاولة لكتابة تاريخ ذلك النص.

5- إن "تفسير الشعر بالشعر" المناهض لشتى أشكال القراءة الإسقاطية، في احتفائه بالسياق اللغوي الداخلي، يقلّد صنيع بعض المفسرين الذين فسروا القرآن بالقرآن.

ويقر الغذامي صراحة بأن تشريحيته تختلف عن تفكيكية دريدا "تلك التي تقوم على محاولة نقض منطق العمل المدروس من خلال نصوصه، وأنا لم أعمد إليها هنا لأنها لا تنفعني". ولكنها أقرب إلى تفكيكية (بارت) القائمة على تشريح النص من أجل إعادة بنائه، وهذا ما يجعل المؤلف يسمو بنصه إلى التداخل معه.

إن كل ما ذكر آنفا يدل على أن القراءة هي عملية تشريح للنص، وكل تشريح هو محاولة استكشاف جديد للنص الإبداعي ولذلك تعطى هذه القراءات سيلا من الدلالات.

إنّ للدرس الحديث دورا في تأسيس لمنهج نقدي معاصر يسعى لإلغاء السياق وتبني الطرح النسقي المحايد الذي يسعى إلى مقاربة نقدية مبنية على مقاربة النّص الأدبي لذاته وبذاته. لكن سرعان ما وقع هذا الطرح في مأزق النّص البنيوي المغلق، فعمل الخطاب النقدي جاهدًا من أجل تأسيس لمقولة أخرى تعمل من أجل تبني "الداخل والخارج" في الممارسة النقدية وجعل الخطاب الأدبي هو الوثيقة الأساسية التي تسعى المقاربة النقدية لقراءتها فتلمس علاماتها الدلالية من خلال المستويات الأساسية التي يؤسس عليها الخطاب الأدبي.

وهذا ما يؤكد أن الخطاب النقدي المعاصر يعمل دائما من أجل الكشف والاستكشاف وذلك لتجديد أدواته الإجرائية ومفاهيمه ورؤاه، حتى يبقي على دم التجديد يسري في عروقه.

مراجع المحاضرة:

- يوسف وغليسي: مناهج النقد الأدبي، جسور للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، 2010.